



الباسمة

قصة مصرية

للآنسة سهير القلماوى

لسانسيه فى الآداب

سكت القوم وكأنهم ينصتون الى نغم سماوى جميل .
وكان النغم قد حملهم من الأرض الدنسة الى السماء الطاهرة ،
واستمرت هي في عزفها تهز أوتار القلوب هزا ضعيفا مطربا ،
ثم أتت عزفها والتفتت الى السامعين فاذا كل منهم مشدوه ،
الهاه الطرب وأنساه النغم أن يظهر اعجابه أو سروره . ورنّت
ضحكتها العذبة الجميلة فتنبه السامعون ودوى المكان
بالتصفيق الشديد .

كنت في السامعين ولم أكن أعرف عنها الا أنها
عذبة الابتسامة وضاحة الحيا ، يشع من نفسها سحر عجيب
يملا ما حولها حياة فرحة نشيطة . سألت عنها فقلت أنها
تتكسب بعزفها هذا لتعول طفلها الصغير الوحيد . ورحت
أسأل عنها هذا وذاك فعرفت أنها شخصية فذة ، شخصية نادرة
عجيبة . مات أبواها وهي في سن الطفولة ، وفقدت
أقرباءها واحدا وراء الآخر حتى فقدت زوجها منذ زمن
يسير . ولكن الغريب من أمرها أنها برغم هذا كله كانت
مبتسمة ومتفائلة دائما . لقد صغرت الدنيا في عينها ولم يسلمها
هذا الاستصغار الى الالم أو الحزن أو اليأس . فهي لم تكن
يوما ما تؤمل من الدنيا شيئا حتى يخيب أملها فيها . ثم هي لا
توقن بشيء من أمر آخرتها . كل ما تعرفه أنها تعيش وأن
الحياة شيء بهيج يجب أن تستمتع بها كل الاستمتاع ، فمن يدرى
لعل نهايتها قريبة ! بل لعل الوانا من العذاب تنتظرها بعد حين !
كانت شديدة الشغف بالطبيعة ، تخرج اليها كلما استطاعت
تستنشق نسيمها واريح ازهارها ، وكأنما تستنشق حياة جديدة
فتزيد حيويتها ويزداد بشرها وسرورها .

منذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين تزداد معرفة كل منا
بالاخرى ، يوما بعد يوم ، فزداد لذلك حبنا ويستوثق رباطنا . ولقد
صحبتهما في بعض محاولاتها الاخيرة ، فقد حاولت لتزيد كسبها
ان تطرق ميدان الادب ثم ميدان الرسم ثم ميدان التعليم
فطرقها جميعا واحفقت في كل منها اخفاقا لا ذنب لها فيه .
ولكنها كانت ترجع من كل خيبة وكأنها أول الظافرين وآخرهم !
ثم لا يلبث فشلتها ان يستحيل سريعا الى أمل جميل وعزم وطيد .
وفي ذات يوم مرض ابنها مرضا شديدا فعاونتها على علاجه
والسهر على رغم أبنائها ذلك على . وفي ليلة طاخية الظلام شديدة
البرد اضطرت الى تركها بجانب وحيدها العليل . وفي الغد
عدت اليها فوجدتها محجرة العينين تنفرج شفاتها عن ابتسامة
ساخرة مرة مؤلمة . ترى ماذا حل بهذا الوجه الصبوح المستبشر
الذي لم يقو الدهر على قلب ابتسامته أو تشويها ؟ واتجه
نظري أولا الى الطفل ماذا حل به وأين هو ؟ وأخيرا علمت
أن طفلها الوحيد الذي كان يربطها بالحياة فارق الحياة أمس
مساء . فانهمرت دموعي على رغم ما حاولت من حبسها واحسست
بفراع حولي وكأنما نار الهبت رأسى وعيني ، فاخذت أبكي
وابكي وظلت هي تكفكف عبراتي وتواسيني وكأني أنا
الشكلي المسكوة . أيمكن أن تكون عديمة الاحساس ؟ كلا
لقد عرفت من حساسيتها الشيء الكثير ، ولعل نظرة واحدة
الى ذلك الوجه الجميل تقنع الناظر بالآلام التي تحاول اخفاءها .
كل المصائب التي توالى عليها لم تغير نوع ابتسامتها ، ولكن
موت طفلها غير ملامح وجهها كلها . ياليتها بكى ! ياليتها
استطاعت أن تبكي !

وظلت نحو شهر في صراع بين الحزن وبين طبيعتها المرحّة
الضاحكة ، تحاول بكل ما أوتيت من ارادة وعزم ان تغلب
على مصابها فتبتسم كما كانت تبتسم ، ولكن ابتسامتها أصبحت
مبكية مؤلمة تبعث الشفقة والالم بعد أن كانت تبعث المرح
والحياة .

لقد لازمت فراشا منذ أيام وكانت متعبة مريضة خائرة